التنظيم العسكري والحربي في المغرب الأقصى
من القرن 17م إلى نهاية القرن 18م

الأستاذ/ شرف موسى

المركز الجامعي للبيض

الملخص:

يعتبر المغرب الأقصى واحدا من دول بلاد المغرب العربي التي عرفت تطورا هاما على المستوى العسكري والحربي خلال العهد العلوي لاسيما منذ النصف الثاني من القرن 17 وإلى أواخر القرن18م، حين أنشا المولى إسماعيل جيشا جديدا من العبيد السود الذين جلبهم من السودان الغربي، وذلك لحماية البلاد من الغزو الخارجي (التحرش الأجنبي على سواحل المغرب وتأمين الحدود مع الجزائر العثمانية)، وضبط حركة القوافل ولقوة هذا الجيش الذي عرف باسم عبيد البخاري صار يتدخل في الكبيرة والصغيرة من شؤون المخزن خاصة بعد وفاة مؤسسه المولى إسماعيل، فأدخل البلاد في أزمة طويلة قاربت الثلاثون سنة، حتى سميت الأزمة باسمه(أزمة جيش العبيد) وقد تفاعلت مع هذه الأزمة عناصر أخرى ألفت التمرد والعصيان، فكان للمرابطين وشيوخ القبائل والزوايا نصيبهم في الفوضى. ولما تقلد محمد الثالث الحكم عرف كيف يتخلص من العناصر الفاعلة في هذا الجيش، فادخل عليه إصلاحات جديدة من خلال تطعيمه بعناصر جديدة من القبائل العربية. كما اعتمد على الخبرة التركية في تطوير الصناعة الحربية. فكيف تطور هذا الجيش وما هي الإصلاحات التي أدخلت عليه؟

لقد اعتمد السلطان محمد بن عبد الله على سياسة مفادها الحفاظ على الأمن الداخلي للمغرب بدل التفكير في توسيع نفوذ الدولة، غير أن سياسة السلطان محمد الحربية تدل على عكس ذلك. فهو في البداية أفرغ جيش العبيد

من رؤوس الفتنة، من خلال نفيهم في القبائل أو قتلهم، كما دعم الجيش بالقبائل المخزنية البربرية والعربية وجعلها عمدته، وجعل الجنوب المغربي لاسيما مدينة مراكش مركزا لجيشه النظامي نظرا للاستقرار النسبي الذي عرفته المنطقة. وطور هذا الجيش من خلال الزيادة في الرتب بتلقين بعض العناصر العلوم الطبيعية والعلوم الحربية والتقنية، زيادة على المرتبات الشهرية والعطايا السنوية التي كانت تمنح للجنود. ناهيك عن الأسلحة الحربية التي كان يحوزها هذا الجيش الذي تلقت مجموعات منه مثل: المشاة والطبجية والسلوقية التدريبات على يد مهندسين مهرة من الأتراك جاؤوا خصيصا من تركيا لأجل ذلك بطلب من السلطان. وهكذا اشتمل الجيش النظامي للسلطان محمد على حوالي 26040 عنصر.

أما القوات البحرية التي بلغت 2490 عنصرا فكانت موزعة بين الثغور والقلاع والحصون والأسطول البحري هذا الأخير فاقت عدد قطعه 20 قطعة بحرية مختلفة الحجم والمهام. ولعل قوة هذا الأسطول وأهميته دفعت بقناصل الدول الأوربية في المغرب لرفع تقارير سرية عنه لحكومات بلدانهم. وهذه الأخيرة عملت كل ما في وسعها للتضييق على الأسطول المغربي في محاولة منها للقضاء على القرصنة في حوض المتوسط. ولعل هذا ضغط دفع بالسلطان محمد لاستبدال الأسطول الحربي المغربي بأسطول تجاري، لا سيما وأن المرحلة كانت تقتضي ذلك لمواكبة الحركة التجارية البحرية، فعهد القوافل في نظر السلطان قد ولى وحان الوقت للتفتح على الغرب والاستفادة من تطوره.

ولأن عزيمة السلطان محمد الثالث في الحفاظ على الوحدة الترابية للمغرب كانت قوية، فقد بذل كل ما في وسعه لاسترجاع المدن المغربية المغتصبة من طرف البرتغال والإسبان، فبعدما خلص الجديدة من يد البرتغاليين وجه نظره صوب سبتة ومليلة غير أن محاولاته الحربية والدبلوماسية باءت

بالفشل، وهذا الفشل لاسيما على المستوى الدبلوماسي حمله السلطان لسفيره إلى إسبانيا أحمد الغزال الذي لم يكن في مستوى السفارة.

لم تدم فترة الهدوء التي عرفها المغرب على عهد السلطان محمد الثالث طويلا، فبمجرد وفاته عادت الفوضى والفتن للمغرب من خلال عودة رؤوس الفتنة للواجهة.

كان من مقتضيات الطموحات السياسية والعسكرية للسلطان إسماعيل خلال فترة حكمه التي دامت زهاء خمس وخمسين سنة (1082-1139هـ/1672م-1727) هو إنشاء جيش كبير ساهم بقوة في بسط نفوذه على المغرب وعلى أجزاء نائية خارج ترابه،[1] وخلال هذه المدة، بذل هذا الأخير جهودا كبيرة لإعادة تنظيم الجيش والقضاء على المؤامرات والتكتلات القبلية ذات الضغط السياسي،[2] فألف جيشا يتكون في غالبيته من عنصر العبيد، إضافة إلى عناصر أخرى من القبائل العربية.[3] وقبل أن يكون الجيش نظاميا حاول المولى إسماعيل أن يستعين بالعناصر الأعرابية التي كان

---

(1) امتد نفوذ المغرب من وجدة شمالا إلى فجيج جنوبا، حتى الساقية الحمراء والسودان الذي ظل خاضعا للمغرب إلى سنة 1893 وقد تناوب على حكم السودان بين 1660إلى 1750م حوالي 188 وال مغربي يلقبون بالباشا، وتغير هذا اللقب بلقب الكاهية فيما بعد، أنظر:

- عبد الله بن عبد العزيز، **الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة الصحراء**، ج9، مطبعة *فضالة، المغرب، 1976، ص: 17.*

*(2) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ من نشأة الدولة العلوية إلى إقرار الحماية**، الجزء الثالث، ط1، دار الرشاد* الحديثة، الدار البيضاء، 1985، ص:32-62.

(3) يعرف هذا الجيش كذلك باسم عبيد البخاري، أنشأه السلطان إسماعيل من العبيد السود في الغالب، إضافة إلى بعض القبائل العربية الأخرى مثل: الودايا أخوال المولى إسماعيل وعرب المعقل، وكان الأمر المطروح عليه أساسا في البداية هو تحرير الثغور المغربية من الاحتلال الأجنبي، وقد عاهد أفراد هذا الجيش السلطان على حماية سنة الرسول صلى الله عليه وسلم المدونة في صحيح البخاري، لذلك عُرف باسم جيش البخاري. أنظر:

- محمد بن الطيب القادري، **النقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، 1167/1164هـ**، تحقيق هاشم العلوي الفاسي، ط1، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983، ص: 334-340، (الهامش).

يعتمد عليها من سبقه من ملوك الدولة السعدية، بل وحتى لما أسس هذا الجيش النظامي، ظل يعتمد على جيش العرب المعروفين بأهل السوس: أولاد جرار، أولاد مطاع، زيرارة، الشبانات، الأوداية، المغافرة، وحمل هذا المجموع من القوة العسكرية إسم كيش الأوداية. وأمام اقتناع المولى إسماعيل بشراسة القبائل الجبلية المحيطة بعاصمة الدولة مكناس، ومقاومتهم لكل محاولة تهدف إلى تركيز الدولة وتوحيد البلاد، وعدم اطمئنانه كليا على جيش الأوداية، بدأ يفكر في محاولة لتكوين جيش آخر قار ومنظم، يكون أشد ارتباطا بشخص السلطان، وأكثر إخلاصا له، ولا يرتكز على أية عصبية قبلية.(1)

بعد استيلاء المولى إسماعيل على مدينة مراكش، في آخر ذي الحجة 1082هـ/ 1672م قدم قاسم عليليش أحد أبناء كاتب السلطان أحمد المنصور الذهبي(ت 1012ه/1603م) للسلطان إسماعيل سجلا فيه إحصاء للعبيد السود، الذين كان أحمد المنصور الذهبي قد جلبهم من السودان الغربي، وكانوا وقتئذ موزعين على مجموع مدن وقبائل المغرب، خصوصا ناحية مراكش. وقد أثار عددهم الكبير اهتمام السلطان، ومن ثم جاءته فكرة استعمالهم كنواة لجيش من نوع خاص. (2)

أعطت العملية الأولى لتجميع العبيد إلى حدود سنة (1089هـ/1678م) ما يفوق 12.000 جندي سجلوا جميعا في دفتر خاص، وكساهم السلطان وزوج غير المتزوجين منهم، وأعطاهم السلاح وعين عليهم القواد، وبعث الجميع إلى معسكر خاص أطلق عليه اسم المحلة أو مشرع الرملة.(3) ومع الوقت بلغ تعداد الجيش العبيد النظامي الذي ألفه المولى إسماعيل

(1) المصطفى البوعناني، "مشرع الرملة،" **متنوعات محمد حجي**، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص:226.
(2) **نفس المرجع**، ص: 227.
(3) **نفس المرجع**، ص: 227.

حوالي 150 ألف جندي، 80 ألفا منه في القلاع والقصبات و25 ألفا متمركزون بمكناس وضواحيها، أما الباقي ففي المحلات.[1]

اعتمدت خطة المولى اسماعيل في تكوين جيش العبيد على قاعدة أساسية تتمثل في نقل أبناء العبيد وبناتهم الذين بلغوا العشرة أعوام من مشرع الرملة إلى العاصمة مكناس، وبعد ذلك تفرق البنات على عياله في القصور، كل مجموعة في القصر للتربية والتعليم، أما الأولاد فيفرقون على المعلمين لتعلم أنواع الخدمات – البناء- التجارة- الاستئناس باستعمال الدواب... مدة ثلاث سنوات، ثم ينقلون بعد ذلك إلى التدريب على أمور الجندية مدة ثلاث سنوات أخرى إلى أن يصبحوا في عداد العسكر الحربي، فيزوج كل واحد من الأولاد واحدة من الإماء، ويعطى للأزواج كما للإماء مقدارا من المال يستعينون به في أمورهم العائلية. ووصل راتبهم على عهد المولى إسماعيل 100 ألف مثقال. وسار السلطان على هذا النهج من التكوين مدة نصف قرن من سنة (1100هـ/ 1689م) إلى سنة(1139هـ/ 1727م) أي حتى وفاة المولى إسماعيل.[2]

استطاع السلطان إسماعيل عن طريق جيش عبيد البخاري أن يبسط نفوذه على أقاليم المغرب، وأن يضع حدا لثورات بعض الأمراء العلويين وبعض الزوايا والقبائل،[3] والحد من محاولات الانفصال، والاستقلال ببعض أقاليم المغرب.[1]

---

(1) **القادري**، ص: 334-335، (الهامش).

(2) **البوعناني**، ص ص: 227-228.

(3) بداية من السنة التي تولى فيها السلطان إسماعيل الحكم أي 1672 إلى حدود سنة 1713م، حدثت بعض المحاولات الانقلابية والانفصالية ضد السلطان قادها مجموعة من الأمراء العلويين أمثال: ابن محرز أخو السلطان ومحمد العالم وأبو النصر ابني إسماعيل، بمساعدة بعض قبائل السوس، وأهل مراكش وفاس، كما كانت محاولات أخرى لمجموعة من القبائل كغيلان في الشمال وآل النقسيس التي أعانهم فيها ألأتراك. أنظر:

ولقد عمل المولى إسماعيل طيلة فترة حكمه على ضبط الأمن وتسهيل حركة القوافل والمسافرين، بفضل الشبكة الأمنية التي بثها في مختلف أرجاء البلاد، والتي كان قوامها الحصون والأبراج والقلاع والقصبات، وكلها مجهزة برجال من الجيش النظامي أو من القبائل المستوطنة بنفس المنطقة، كما استطاع المولى إسماعيل أن يحرر الثغور المغربية من السيطرة الأجنبية.[2]

لقد عاش المغرب على عهد السلطان إسماعيل فترة طويلة من الأمن والاستقرار. لكن ما يجب الإشارة إليه، أنه إلى جانب هذا الأمن المحقق زرع المولى إسماعيل بذور التفكك والدمار للمغرب دون أن يدرك ذلك، فجيش العبيد الذي أسسه السلطان لحماية المغرب، تخلى عن وظيفته وصار بؤرة للتوتر والعصيان. والسبب في ذلك أن جيش العبيد أيام المولى إسماعيل، اتصف بالعنف والقوة والبطش، فقد ارتكب من المظالم ما لم تتحمله العامة ما جعله أبغض شيء لديهم وقتها، إضافة إلى أن هذا الجيش لم تكن لديه قيادة مطاعة غير قيادة المولى إسماعيل، فلما مات هذا الأخير أصبح الجيش بدون رأس وتدهورت حالته تدهورا شديدا، مما دفع القبائل المغربية التي أخضعت سابقا عن طريقه إلى استعادة قواها من جديد فدخلت معه في مواجهات حادة.[3] كما أن الزوايا والطرق الصوفية والقبائل التي أخضعت بالقوة في وقت سابق، عادت لإثارة

– محمد خير فارس، علي عامر محمود، **تاريخ المغرب العربي الحديث" المغرب الأقصى ــ ليبيا"**، منشورات جامعة دمشق، 1999-2000، ، ص: 86- 88.

(1) **حركات**، ج3، ص: 35- 40.

(2) **نفس المرجع**، ج3، ص: 59-60.

(3) حسين مؤنس، **تاريخ المغرب وحضارته من الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي**، ج3، العصر الحديث للنشر والتوزيع، د.م.ط، 1992، ص: 292-293.

القلاقل، وتحريض الأمراء ضد بعضهم، فلا يمكن أن نجد أميرا ثائرا إلا واتبعه شيخ طريقة[1] أو قبلية من القبائل العربية أو البربرية.[2]

استبد جيش العبيد بالسلطة وتحكم في اختيار وخلع الملوك العلويين حتى سميت هذه الأزمة بأزمة جيش العبيد، فلم تكن لهذا الجيش عاطفة وطنية، بسبب أصوله الإفريقية، ولا أية خطة إصلاحية أو تنظيمية، وكانت لوضعيته المادية المزرية أثرا فعالا في تحركاته ومؤامراته ضد نظام الحكم، بعد وفاة مؤسسه المولى إسماعيل.[3]

وعلى سبيل المثال من قادة العبيد البارزين في الأزمة السياسية التي عرفها المغرب ما بين (1139-1171هـ/ 1727-1757م) نذكر منهم:

- الباشا مساهل بن مسرور الدكالي: كان أحد كبار قواد جيش البخاري، إذ كان يحكم بسلطة مطلقة في كل المناطق التي كان السلطان فيها معترفا به، على قدر كبير من المكر الخديعة، يتعاطى الخمر بإفراط كبير، قتل في فاتح محرم عام 1149هـ/ماي 1736م.[4]

---

(1) هناك بعض شيوخ الصوفية من لعب دورا هاما في هذه الأزمة من أمثال الشيخ أحمد بن الحبيب من تافيلالت، لعب دور الوسيط بين مولاي عبد الله وأهل فاس، وكذلك إدريس المشاط من تادلا كان إلى جانب أحمد الذهبي بن إسماعيل كقاضي للمنطقة لكنه طرد، فانقلب وبايع المولى عبد الله بن إسماعيل، وكذلك شيخ زاوية أحنصال الذي اشتهر بعلم الرمال (السحر) كما أنه خلال هذه الفترة وقف مع أحمد الذهبي ضد أخيه عبد الملك. أنظر:- **القادري**، ص: 349-354، (الهامش).

(2) **حركات**، ج3، ص: 85- 86.

(3) **نفس المرجع**، ج3، ص: 82-86.

(4) **البوعناني**، ص:229.

- ابن النويني: أحد قواد جيش العبيد الذين كانوا ضد مولاي عبد الله(ت1171هـ-1757م)، دخل معه في حروب، قتل في أحدها بعين الكرمة قرب مكناس عام 1149ه/1736م.[1]

- جيش العبيد في عهد السلطان محمد بن عبد الله (1757-1790م):

لقد خمدت الطموحات العسكرية والسياسية في المغرب بعد وفاة المولى إسماعيل لفترة طويلة جراء الأزمة التي تسبب فيها جيش العبيد، مما جعل السلطان محمد بن عبد الله حفيد المولى إسماعيل يستغني عن خدمات غالبية عظمى من هذا الجيش،[2] بعد أن بات جيش العبيد مصدرا للأخطار والويلات، رغم أن السلطان استعان ببعض عناصره في بسط سلطانه على العديد من الأقاليم والقبائل. إلا أنه في نهاية المطاف تخلص من الكثير منهم، لاسيما أولئك الذين اقترن عملهم بالنهب والسلب.[3] فهل يعني هذا أن السلطان محمد بن عبد الله لم يكن يرغب في إيجاد جيش قوي كجيش العبيد ؟ أم أنه اكتفى بما ورثه عن جده من عناصر مخلصة من أفراد الجيش، مع بعض القبائل المخزنية ؟ أم أنه كان يخشى المغامرة، تجنبا لأية مفاجأة أو مؤامرة لا تحمد عقباها ؟

لما عاد الاستقرار السياسي إلى الدولة العلوية مع السلطان محمد بن عبد الله، عاد العبيد إلى صفوف الجيش العلوي بصفة محتشمة، فتّم تجميعهم من

---

(1) **نفس المرجع**، ص:229.

(2) **حركات**، ج3، ص: 99.

(3)عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ط1، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، 2007، ص: 503.

عدة مناطق من المغرب وأنزلوا بالرباط.[1] لكن ثورة العبيد وخروجهم عن طاعة السلطان محمد بن عبد الله، ومبايعتهم لولده اليزيد سنة(1189هـ-1775م)، دفعت بالسلطان للانتقام منهم ونقلهم إلى عدة مناطق، وتفريقهم بين القبائل،[2] وكان القصد من وراء تفريقهم، دفع غائلتهم وتوهين عصبيتهم، ففرقة منهم أنزلت عند قبائل الغرب (بناحية تطوان)، وفرقة أخرى عند قبيلة بني أحسن العربية.[3]

ولما حلوا بهذه المناطق، أمرهم السلطان أن يقيموا بها، ووكل عليهم سكان هذه القبائل ونزع لهم العدّة والخيل والسلاح وحولهم إلى سلعة تباع وتشترى، ثم كتب السلطان إلى بني أحسن وقبائل الغرب أنه أهاب عليهم العبيد، فالرجال يحطبون لهم الحطب والنساء ترعى لهم الغنم، فكان العبيد يذهب لجهة وزوجته لجهة أخرى، وولده كذلك، وهم يتعانقون ويبكون، وبقوا على تلك الحال و لم يسترجعوا نفوذهم إلاّ بعد وفاة السلطان محمد بن عبد الله وعودة المولى يزيد.[4]

وهنا تجدر الإشارة إلى أن بعض المؤرخين يعتبرون أن السلطان محمد بن عبد الله، قلب المعادلة السياسية المغربية، فعوض أن يجمع جيشا قويا ليضاعف الجباية ويقود نفوذ الدولة كما فعل ذلك جده إسماعيل، قنع بأن

---

(1) جلب محمد بن عبد الله حوالي 4 آلاف من عبيد السوس إلى رباط الفتح، وأضاف لهم 2500 عنصر من الودايا وبنى لهم الدور والمساجد وكانت حالة العبيد قد ساءت، وتسلط عليهم البربر، فكانوا يخطفون أولادهم من الحقول، ويبيعونهم، فاهتم السلطان لأمرهم رغم ما تسببوا فيه من فوضى وفساد. أنظر:
- أبو العباس أحمد الناصري، **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج4، دار الكتب، الدار البيضاء، د. ت. ط ، ص: 105- 106.

(2) **نفس المصدر**، ج4، ص: 110- 111.

(3) دلندة الأرقش، عبد الحميد الأرقش، بن طاهر جمال، **المغرب العربي من خلال المصادر**، المركز الجامعي، د. م. ط ، 2003. ، ص: 173.

(4) **نفس المرجع**، ص: 174.

يكون جيشه مجرد قوة رادعة، وظيفتها الأولى المحافظة على الأمن الداخلي، إلا أن عمدة هذا الجيش، كانت القبائل المخزنية.[1]

لكن الملاحظ عند البعض الآخر من المؤرخين أن المخزن خلال هذه الفترة كان له اعتناء شديدا بالقوة الحربية، البرية منها والبحرية، حتى أن أوربا كانت تلجأ إلى خطب وده والتعلق بحبال عهده، وكانت سياسة المغرب الخارجية تدل على أبهة الدولة ومالها من قوة الشوكة وتمام الصولة والتوفيق التام في كل حركة وجولة. واستقصاء ما يتعلق بهذا الموضوع أمر متعذر واستقراء حقائقه واستعراضها في هذا المقام أمر متعسر[2] ولذلك نكتفي بعرض أهم الإصلاحات التي أحدثها السلطان محمد بن عبد الله في هذا الميدان.

أ ــ نظام الجندية:

قام السلطان محمد بن عبد الله بإبعاد الجيش عن السياسة وشؤون الحكم وقد انتهج في ذلك سياسة مرحلية، نفذها بالتدرج، سياسة أعادت التوازن إلى بنية الجيش المغربي،[3] فبداية من سنة (1173هـ-1759م) حاول السلطان محمد بن عبد الله إعادة تنظيم الجيش وتعزيزه بعناصر جديدة سجلت في ديوان الجيش بمكناس،[4] إذ طعمه بأبناء القبائل العربية والبربرية ليتوازن تكوينه، ويتحرر من تسلط الزنوج عليه بحكم ما كان لهم من طغيان عددي ومراكز قيادية،[5] ولأن السلطان كان محبوبا في الجنوب المغربي وعمل

(1) **العروي**، ص: 506.

(2) عبد الرحمن ابن زيدان، **العز والصولة في معالم نظم الدولة**، وج2، المطبعة الملكية، الرباط، 1381 هـ-1961م، ص: 193.

(3) أحمد عسة، **المعجزة المغربية**، ط1، دار القلم للطباعة، بيروت، 1974-1975، ص: 109.

(4) عبد الله بن عبد العزيز، **الجيش المغربي عبر العصور**، سلسلة قسم الدراسات الدبلوماسية والقنصلية، وزارة العدل، الرباط، 1986، ص: 37.

(5) **عسة**، ص: 109.

كخليفة لوالده على مدينة مراكش بهذه المنطقة، فإنه اتخذ من الجنوب المغربي قاعدة أساسية للجيش النظامي، وهذا بسبب الهدوء النسبي الذي عرفته المنطقة إبان الأزمة.[1]

كما قسم السلطان أفراد الجيش إلى مجموعتين كبيرتين:

المجموعة الأولى: تقيم بجوار السلطان وبقصره بعاصمة الدولة "مكناس"[2] وكانت تضم في عناصرها القبائل والعبيد وقبيلة الودايا العربية ثاني أكبر قوى الجيش،[3] وكان لهذه المجموعة مرتبين، مرتب يومي يعرف بالمؤونة، يقبضونه مباشرة، ومرتب شهري يعرف بالراتب ويقبضه ذويهم وأهاليهم. [4]

أما المجموعة الثانية من الجند: فتقيم بالمدن الكبرى والثغور[5]، وعلى سبيل المثال: أسكن السلطان أعدادا من العبيد من عناصر هذه المجموعة بالرباط وبنى لهم الدور والمساجد والحمامات والمدارس والسوق وزاد عليهم (2500) جندي من قبائل الجيش.[6] وبداية من سنة (1187هـ-1773م)، اتخذ السلطان من الرباط قاعدة عسكرية له.[7] وكان لهذه المجموعة مرتب شهري فقط،[8] ومما استحدثه السلطان في هذا الجيش ولاسيما فيما يتعلق بالرواتب،

---

(1) **العروي**، ص: 506-507.

(2) ابن زيدان، **العز والصولة**، ج2، ص: 189.

(3) ابن عبد العزيز، **الجيش المغربي عبر العصور**، ص:131، وكذلك: - عبد الأحد السبتي، حليمة فرحات، **المجتمع الحضري والسلطة بالمغرب من القرن 15 إلى القرن 18م**، ط1، دار توبقال، المغرب،2007، ، ص: 107-111.

(4) ابن زيدان، **العز والصولة**، ج2، ص: 189.

(5) **نفس المرجع**، ج2، ص: 189.

(6) ابن عبد العزيز، **الجيش المغربي عبر العصور**، ص: 54.

(7) **السبتي**، ص: 125-126.

(8) ابن زيدان، **العز والصولة**، ج2، ص: 189، وكذلك: - ابن عبد العزيز، **الجيش المغربي** ، ص: 122.

أنه جعل للجيش راتبا مسبقا لمدة خمسة عشر سنة كاملة، يقبضه الجند مباشرة ودفعة واحدة، بحساب مثقال واحد في الشهر، دون المنح والمكافآت التي كانوا يتحصلون عليها من بيت المال وذلك بداية من السنة (1200هـ-1785م).[1] وأما عطاء الغزو وعطاء عاشوراء فقد كان السلطان يبعث به كله من ماله الخاص لا من بيت مال المسلمين، واستمر على ذلك إلى أن توفي رحمه الله.[2]

أما بالنسبة لقبائل الجيش المخزنية، المعروفة اصطلاحا بقبائل الكيش، فكانت موزعة على بعض المناطق كما يلي: الثلثان من سكان الصويرة من الجيش، ونصف من سكان آسفي، ومعظم سكان الدار البيضاء،[3] ومجموعة سكان تمارة[4] التي تعتبر جالية عسكرية. وقد عين السلطان لكل قبيلة رئيسا عسكريا مكلفا بتنظيم الرجال المتوفرين، وتوزيع البنادق والبارود.[5]

كما كانت الفرق الخاصة من الجيش تعرف بعبيد السلوقية، والطبجية. فعبيد السلوقية كانوا يدربون الكلاب السلوقية لأغراض عسكرية، وقد نقلهم السلطان محمد بن عبد الله عام(1172هـ-1758م) إلى مكناس واصطحب منهم ألفا إلى مراكش.[6]

---

(1) ابن عبد العزيز، **الجيش المغربي عبر العصور**، ص: 123.

(2) مؤنس، ص:305.

(3) من أكبر مدن المغرب، بها أهم ميناء مغربي تقع على ساحل المحيط الأطلسي وهي عاصمة البلاد المالية والاقتصادية. أنظر:

- الصديق ابن العربي، **كتاب المغرب**، ط3، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، 1984، ص: 129.

(4) قرية صغيرة على الأطلسي جنوب الرباط. أنظر:

- **نفس المرجع**، ص: 103.

(5) ابن عبد العزيز، **الجيش المغربي عبر العصور**، ص: 54.

(6) **نفس المرجع**، ص: 125.

أما الطبجية، وهم رماة المدفعية، فقد كان عددهم أيام السلطان محمد بن عبد الله عام(1200هـ-1785م) مائتان بآسفى، وألفان بسلا والرباط، ومائتان بأصيلا.[1] وثمانمائة بتطوان[2] واختصت مدينة الصويرة بحامية عسكرية فرنسية مؤلفة من (250) جندي، استقدمهم السلطان سنة (1199هـ-1784م)، وكان الإشراف عليهم يعود إليه مباشرة.[3]

وبما أن العلوم الطبيعية والعلوم الحربية والتقنية، لاسيما الحساب والهندسة، كانت محل اهتمام شديد من لدن السلطان، فإنه كان يحث عليها ويشجع دارسيها بالزيادة في الرتب على سائر أفراد الجيش، وهكذا اشتمل جيشه على مائة طالب في الهندسة الحربية.[4]

ولقد تضاربت الآراء واختلفت بين المؤرخين حول عدد القوات النظامية التي كانت في خدمة السلطان محمد بن عبد الله، فالناصري يذكر أن جملة العساكر أيام السلطان محمد بن عبد الله لم تتجاوز 16500 جندي، ما بين مشاة وبحرية،[5] وهي عند من يوافقه من المؤرخين قليلة جدا وغير كافية للدفاع عن بلد له أهمية المغرب الأقصى.

---

(1) مدينة قديمة أسسها الرومان، وفتحها العرب سنة 94هـ-713م، وأخرجوا منها القوط. واحتلها البرتغاليون سنة 1471م إلى سنة 1550م، ثم احتلها الاسبان، وعادت إلى المغرب بعد مفاوضات بين أحمد المنصور السعدي والملك فليب الثاني سنة 1589م. أنظر:

- عبد القادر العافية، **الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها خلال القرن 10هـ-16م**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1982، ص: 38، (الهامش).

(2) ابن عبد العزيز، **الجيش المغربي عبر العصور**، ص: 84.

(3) **حركات**، ج3، ص: 100.

(4) عبد الحق المريني، **الجيش المغربي عبر التاريخ**، الرباط، 1967، ص: 56.

(5) أبو العباس أحمد الناصري، **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق محمد عثمان، ج3، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007، ص: 181-182.

أما الزياني فله في ذلك رأي خاص، وقد حاولنا هنا الاعتماد على إحصائياته كونه كان معاصرا للسلطان محمد بن عبد الله من جهة، ويشرف بنفسه على تدريب القوات البحرية من جهة أخرى.[1]

يذهب الزياني إلى أن الجنود النظامية في ميدان المشاة كانوا مقسمين إلى المشارقة،[2] أي قبائل شرق المغرب، مثل بني يزناس ومنيع وجريد وبلغ عددهم ألف جندي (1000) والمغاربة (3000) رجل ورماة المدفعية(40) رجلا والسود وجيش العبيد (15000) والبيض (7000) رجل، فالمجموع (26040) عنصر، هذا فضلا عن القوات البحرية التي كانت موزعة بين الاحتياطيين وجند المراكب والثغور والحصون والأبراج، والتي سندرجها في تنظيم الأسطول البحري.[3]

ب ــ تجديد الأسطول البحري:

لقد اعتنى السلطان محمد بن عبد الله بأمور البحر أكثر من غيره واستقامت له الأيام، مما جعل الضعيف[4] يقول: "وتكاثرت سفنه من أهل سلا والرباط... وأقبلت عليه الأيام. ولقد وقف له السعد في البر والبحر... ففي هذه السنة أمر بإنشاء سفينة كبيرة من طابقين وأنفق فيها مالا كثيرا." وأضاف

---

(1) عبد الرحمن ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**، ج3، ط1، المطبعة الوطنية المغربية، 1349هـ-1931م، ص: 262.

(2) لقب أهل تلمسان سكان المغرب الأقصى بالمغاربة، في حين لقب هؤلاء الأواخر أهل تلمسان وما جاورهم من قبائل بالمشارقة، كما سموهم كذلك بالشراقة، في حين أن الناصري ينسب لقب الشراقة إلى عرب بادية تلمسان. أنظر: - **خير فارس**، ص: 83، (الهامش).

(3) أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا 1147-1249هـ الموافق لـ 1734-1904م**، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، د.ت.ط، ص: 17-18.

(4) مؤرخ مغربي عاش في النصف الثاني من القرن 18، عاصر السلطان محمد بن عبد الله، وجزء من عهد المولى سليمان، كان عالما عارفا بالفنون مثل البيان، أرخ للمغرب وكتب عن الأحداث والوقائع التي شهدها في زمانه في مجلد كبير، سماه: "تاريخ الضعيف".

قائلا: "... وأعظم من هذا كله ما فيه الوجهة للجهاد وجمع آلاته وجميع ما يحتاج إليه من عدة وعدد وقد جمع من ذلك ما لم يتفق لأحد ممن تقدمه، وسخر الله له السفن من أهل سلا والرباط وغيرهما."[1]

ويؤكد الزياني ما جاء في قول الضعيف بقوله: " وفي ميدان البحر بعد ما أنشأ أهل سلا والرباط سفينتهم الكبرى ذات طابقين سنة (1174هـ-1761م) والمسماة (بالمعونة) التي أنفق فيها أربعين قنطارا من الذهب، نظم السلطان القطع الحربية كما يلي:
بواخر كبيرة عددها عشرون (20)، جندها (1430)، مدافعها (232)، بواخر مساعدة عددها (30)، ويقدر رؤساء البواخر(60) رئيسا.[2]

أما احتياطي الجند من البحرية فـ (400) من الفلاليين (يقصد إقليم تافيلالت) و(600) من آيت عطا[3] مما مجموعه (2490) .

وكانت أقوى حاميات البحرية فرقة سلا والرباط، التي قامت بعمليات كبيرة في بناء السفن وترميمها، كما كادتا تستأثران في هذه الحقبة بعمليات الجهاد البحري، التي كان السلطان يشجعها ويكافئ المجاهدين عليها، كلما غنموا أو أسروا، كما فعل سنة (1174هـ- 1758م) مع السلاويين (أهل سلا).[4]

---

(1) محمد بن عبد السلام الضعيف، **تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة) 1752-1818**، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري، دار المأثورات، المغرب، د.ت.ط، ص: 170.

(2) **الزياني**، ص: 17.

(3) من القبائل البربرية المغربية القاطنة ناحية الجديدة من إقليم تادلا. أنظر:
- **ابن العربي**، ص: 461.

(4) **الزياني**، ص: 18.

ويذهب المؤرخ الإسباني رامون لوريدو دياز[1] إلى أن السلطان محمد بن عبد الله حاول خلق أسطول بحري وطني قادر على رفع التحديات والمشاركة في النشاط الاقتصادي العالمي ولم تكن لهذا السلطان أي نية في الجهاد أو إعلان الحرب على المسيحيين، عكس ماذهبت إليه كتابات بعض الإخباريين مثل الزياني والضعيف.[2]

ولعله من البديهي أن الاستيلاء على السفن الأجنبية وأسر بحارتها كان يثير ردود فعل قوية أحيانا، كما هو الشأن في ضرب الأسطول الفرنسي للعرائش[3] عام (1179هـ-1765م)، وفي الغالب كانت المفاوضات خير وسيلة للوصول إلى حل مرض للأطراف.[4]

ومن أجل تجاوز المشاكل الداخلية التي كانت وراء أزمة العبيد، وجد السلطان محمد بن عبد الله نفسه في تناقض، إذ كيف يمكنه الجمع بين إرادة التفتح على الخارج مع أوربا، والتعامل معها اقتصاديا وسياسيا وفي نفس الوقت

---

(1) مؤرخ إسباني كتب عن تاريخ المغرب العلوي، وأرخ للسلطان محمد بن عبد الله في العصر الحديث، له كتاب في العلاقات المغربية الإسبانية بعنوان العلاقات السياسية والتجارية بين المغرب وإسبانيا خلال القرن الثامن عشر باللغة الإسبانية.

(2) عبد المجيد قدوري، **المغرب وأوربا بين القرنين 15 و18، مسألة التجاوز**، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000، ص: 240.

(3) جاء هذا القصف بعد أن أسر الأسطول المغربي، قطعا من الأسطول البحري الفرنسي، وساقها إلى الموانئ المغربية فلم يرض الفرنسيون بذلك، فشنوا هجوما بحريا على ميناء سلا سنة (1178هـ-1764) وعاودوا الكرة على العرائش سنة (1179هـ-1765) دون أن يحققوا أي انتصار. أنظر:
- الهاشمي الفيلالي، **دروس التاريخ المغربي**، ط3، دار السلمى للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1961، ص: 214.

(4) **حركات**، ج3، ص:101.

اتخاذ الجهاد البحري والذي سماه الأوربيون بالقرصنة،[1] أداة يستعملها للضغط على الدول الأوربية ؟[2]

ولتجاوز هذا التناقض، عمل السلطان محمد بن عبد الله على تقنين القرصنة[3] واستبدالها بأسطول تجاري، وتوظيفه لإدخال المغرب وإشراكه في التجارة العالمية.[4] فالسلطان كان يريد من جهة توجيه التجارة المغربية إلى الشواطئ ومن جهة أخرى الانتقال بالبحرية المغربية من حالة القرصنة إلى وضع

(1) عرّفت القرصنة في اللغات الأوربية على أنها: "وصف للسفن التي كانت تجهز ببلاد المغرب للهجوم على النصارى"، أي ما نسميه في لغتنا العربية سفنا معدة للجهاد، ولعل هناك من يعترض علينا الاحتفاظ بكلمة القرصنة بدل كلمة جهاد بدعوى أن الكلمة فيها تنقيص، مع كل ما تحمله كلمة قرصنة من خلفيات تاريخية ومع كل ما لها من خصوصيات، ولكن كمؤرخين نحتفظ بالاسم الذي عرفت به في وثائق العصر والذي يميزها عن غيرها من المفردات. أنظر:

- العربي الصقلي، **مذكرات التراث المغربي من تثمين الدولة إلى المخاطر**، ج3، منظمة الشمال، د. م. ط، 1985، ص: 263.

(2) **قدوري**، ص: 351.

(3) تحولت القرصنة في القرن الثامن عشر ميلادي نوعا ما إلى نشاط بحري تابع للدولة، فبعد انتهاء أزمة الجيش سنة 1757م عادت القرصنة في عهد السلطان محمد بن عبد الله، وكانت تحظى بسمعة كبيرة بين الناس، حتى أن أعيان وعلماء سلا والرباط توجهوا إلى السلطان يرجونه أن يعيد للجهاد البحري مكانته القديمة، إلا أنهم لا يعتبرونه لصوصية كما يدعي ذلك الخصوم، وقد أقيمت ورشات لصناعة السفن على ضفاف وادي أبي الرقراق في العرائش لكن القرصنة لم يبق لها آنذاك الفعالية، فقد حدث تحول في العلاقات بين المغرب والدول الأوربية، فلم تعد مهام الأسطول الحربي تقتصر على شؤون الحرب البحرية، بل اتسعت إلى مسائل تجارية، لاسيما وأنه خلال هذه الفترة من القرن الثامن عشر تناقصت غنائم الجهاد البحري لأسباب متعددة، على رأسها التقدم التقني في مجال الملاحة. أنظر:

- **الصقلي**، ج3، ص: 258.

(4) **قدوري**، ص: 239.

يشد أوربا في نطاق تعاقدي، يعطيه مجالا ووقتا لإنشاء أسطول حربي على النمط الغربي.[1]

ثم إن تأسيس أسطول مغربي وفق الشروط التقنية المعروفة يقتضي الاستعانة بالدول الأوربية، التي لم تكن ترغب في وجوده أصلا، وظلت تعمل على إبقاء الوضع في المغرب كما كان عليه أيام الأزمة،[2] من خلال رفضها الانسحاب من الثغور والموانئ المغربية المحتلة، فكان السلطان محمد بن عبد الله حريصا على تجهيز الأسطول المغربي بما يلزمه من آلات وتجهيزات، لاسيما فيما يعرف بالإقامة.[3] وكان من شروط الصلح التي أبرمها مع الدول الأوربية، تقديم التجهيزات الحربية التي تخص المراكب البحرية، كما كان يشترط هذه التجهيزات في الهدايا التي تقدمها له هذه الدول، وتوجد إشارات كثيرة في مصادر مغربية وأوربية متنوعة بخصوص إلحاح المخزن على تقديم الأسلحة والذخيرة ضمن الهدايا مقابل افتكاك الأسرى، أو ضمان عدم التعرض لهجمات القراصنة المغاربة، وقد اعتبر المؤرخون المغاربة تقديم الأوربيون الهدايا للمغرب، دليل على هيبة المغرب.[4]

وبالرجوع إلى مراسلات السلطان محمد بن عبد الله مع عدد من الدول الأوربية خلال هذه الفترة، نستطيع أن نأخذ فكرة عن حرصه ورغبته في

---

(1) حسن محمد الحجوي، **العقل والنقل في الفكر الإصلاحي المغربي (1757ـــ1912)**، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، د. ت. ط، ص: 38.

(2) **قدوري**، ص: 351.

(3) يقصد بها جميع لوازم البحارة والملاحة من حبال وبراميل وقلاع ومجاذيف وأشرعة. أنظر:

- محمد بن علي الدكالي، **الإتحاف الوجيز بتاريخ العدوتين**، تحقيق محمد بوشعرك، منشورات الخزانة الملكية، الرباط، 1901، ص : 184.

(4) أحمد المكاوي، "الهدية في العلاقات بين المغرب وأوربا"، **المجلة التاريخية المغربية**، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات زعوان، تونس سنة 27، العدد: 99-100، ماي 2000، ص: 613.

امتلاك أسطول حربي متطور وقوي، ففي رسالة موجهة لحكومة هولندا بتاريخ 10 جمادي الثاني 1197هـ الموافق لسنة 1782م، كتب السلطان محمد بن عبد الله يقول: "ها نحن وجهنا لكم خديمنا الطالب عمر أيوب ... فابعثوا لنا مع مراكبكم (الإقامة) (كذا) ويصلكم معه زمام مطبوع بطابعنا ... ونقول بكل ما يقوله،" كما أثبتت هذه الرسالة وصول الإقامة إلى المغرب سنة (1200هـ-1785م) على الشكل الآتي: " الحمد لله تقييد إقامة مراكب سيدنا الجهادية التي وجهها الفلامنك (الهولنديون) (كذا) هدية لمولانا السلطان مع خادمه الطالب عمر أيوب ..."[1].

كما كان السلطان حريصا على إنشاء مصانع للسلاح وورشات لإصلاح السفن، فلقد أمر تاجرا من ايطاليا كان مقيما بالمغرب بإنشاء مصنع للسلاح، واستحدث ورشات إصلاح السفن كان يشرف عليها بعض الاسبان، وكان الأتراك العثمانيون ممن شاركوا في تأهيل القوة الحربية للمغرب بطلب من السلطان، فقد اجتمع السلطان بهم في مكناس واتفق معهم على المقام في المغرب.[2] وكان لهم الفضل في تأسيس مصانع لتذويب النحاس وصناعة القنابل ومصانع أخرى للأسلحة، كالبنادق والأسلحة البيضاء مثل الخناجر والرماح،[3] ولقد استفاد منهم المغاربة كثيرا مما لم تكن عندهم من هذه الصنائع.[4]

يبدو أن السلطان محمد بن عبد الله كان منشغلا بخلق أسطول أراده في مستوى أساطيل أوربا. ولذلك يذهب بعض المؤرخين، إلى أن السلطان

---

(1) **قدوري**، ص: 352-353.

(2) **الحجوي**، ص: 38.

(3) ابن عبد العزيز، **الجيش المغربي عبر العصور**، ص:80-83.

(4) **الحجوي**، ص: 38.

محمد بن عبد الله جعل من الأسطول مؤسسة مخزنية، فأصبح البحارة المغاربة يتقاضون أجرة وامتيازات من السلطان[1]، كما هو مبين في النصين الآتيين: "الرئيس الصابونجي وأحمد التركي سلام الله عليكما ورحمته وبركاته، وبعد: فيصلكما من حضرتنا العلية بالله ستون مثقالا من المال، ثلاثون لكل واحد منكما، وها أنا قد أمرت خديمي عبد الله بن محمد بدفع كمية من القمح لكل مكنكما وأنتما بنفس ما تحملون وما تحتاجون إليه من الكمية وغيرها."[2]

أما ما جاء في النص الثاني: "الحمد لله، تقييد منّ به مولانا السلطان... وبارك الله في عمره على خدامه المجاهدين أهل سلا وأهل المشرق وذلك لكل واحد منهم كسوة مشتملة على ملف (من القماش)... وريالين وزيادة كمية من الزرع. فرق ذلك على يد خدامه المجاهدين الرايس أحمد والأمين الحاج عبد العزيز عواد والحاج قاسم بن القاضي والحاج محمد المريني والحاج محمد زنيبر، في صفر 1189هـ- 1775م".[3]

إن رغبة السلطان في امتلاك أسطول قوي، جعل قناصل وسفراء الدول الأوربية يراقبون تحركات الأسطول المغربي ويبعثون بتقارير مفصلة عنه، وكانوا يطلعون حكومات بلدانهم بأنشطة السفن الجهادية، ومن الأمثلة على ذلك تقرير قدمه القنصل العام الهولندي "فرانسوا روسينيول" francois rossignol (1771-1777) عن البحرية المغربية في 28 ماي 1772.[4] هذا ملخصه:

---

(1) **قدوري**، ص:351- 352.

(2) ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**، ج3، ص: 263.

(3) **قدوري**، ص: 353.

(4) **نفس المرجع**، ص: 240-241.

الحالة البحرية للإمبراطورية المغربية 28 ماي 1772					
اسم القبطان	نوع السفينة	عدد المدافع	عدد الرماة	عدد البحارة	المدينة
الرايس صالح	فرقاطة سفينة حربية سريعة	30	ـــــ	200	العرائش
الرايس قاسم	'شباك' سفينة حربية أوربية الصنع صغيرة الحجم	12	ـــــ	100	العرائش
علي بيراز	فرقاطة	20	ـــــ	130	المعمورة
الرايس اسماعيل	شباك	10	32	80	سلا
الرايس معمر	قليوت (سفن مطاردة دائرية الشكل)	8	ـــــ	110	طنجة

وكتب "جون لامب"، أول مبعوث أمريكي إلى الجزائر سنة (1201هـ-1786م) إلى حكومة بلده يقول: "إن عدد سفن القرصنة التي تملكها الجزائر في ذلك الحين لا يزيد عن تسع سفن، في الوقت الذي لا تملك فيه هذه الدولة (يقصد المغرب الأقصى) سوى عشر سفن حربية كبيرة، تحمل ما يتراوح بين 8 و36 مدفعا، وأكبر هذه السفن يحمل400 بحارا وهكذا فنازلا."[1] وبعد هذا التاريخ بسنتين كتب ضابط بريطاني كان يعمل في السلك الدبلوماسي بالمغرب الأقصى يقول: "إن الأسطول المغربي في الوقت الحاضر يتكون من عشرين سفينة، يحمل أكبرها عشرين مدفعا. "ويبدو أن هذا الضابط

(1) إسماعيل العربي، **العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة (1776ـ1816)**، سلسلة الدراسات الكبرى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د. ت. ط، ص: 26.

كان يشعر ببعض القلق بشأن صغر حجم الأسطول المغربي حسبما ورد في رسالته هذه التي كتبها لحكومة بلده، لذلك اقترح عليها أن: "تساعد السلطان لمضاعفة عدد قطع أسطوله البحري حيث كان يرغب في ذلك، وهو لا يستطيع أن يلحق بكم الضرر، ولكنه قد يكون شوكة في جانب أعدائكم (الفرنسيون والاسبان)." [1]

ومما كان يسترعي اهتمام القناصل والسفراء الذين كانوا يعملون على رصد التقارير عن عدد سفن الأسطول المغربي وعن عدد مدافعه، أسماء قواد الأسطول وعدد بحارته، فقد قدرتهم التقارير بأربعة آلاف (4000)، ثلاثة آلاف من المغرب وألف من المشرق. دون أن تتغافل هذه

التقارير عن ذكر أصول كل قائد من قواد الأسطول، فنجد ذوي الأصل الأندلسي مثل: (برطل، بيريز، فنيش، بيرو...الخ)، كما نجد إلى جانب هذه الأسماء، أسماء أخرى تحيل على كل مناطق المغرب (العربي العبيدي، وعبد الرحمـــن الدكالي وحسن المكناسي ...) ونجد من جهة أخرى أسماء ترتبط بالحرف (الحداد، النجار، الجزار...)، بالإضافة إلى أسماء تحيل على المناطق الإسلامية مثل: (أحمد التلمساني، ومحمد البنزرتي وسعيد التونسي ويوسف الطرابلسي). [2]

(1) **نفس المرجع**، ص: 27.

(2) **قدوري**، ص:353.

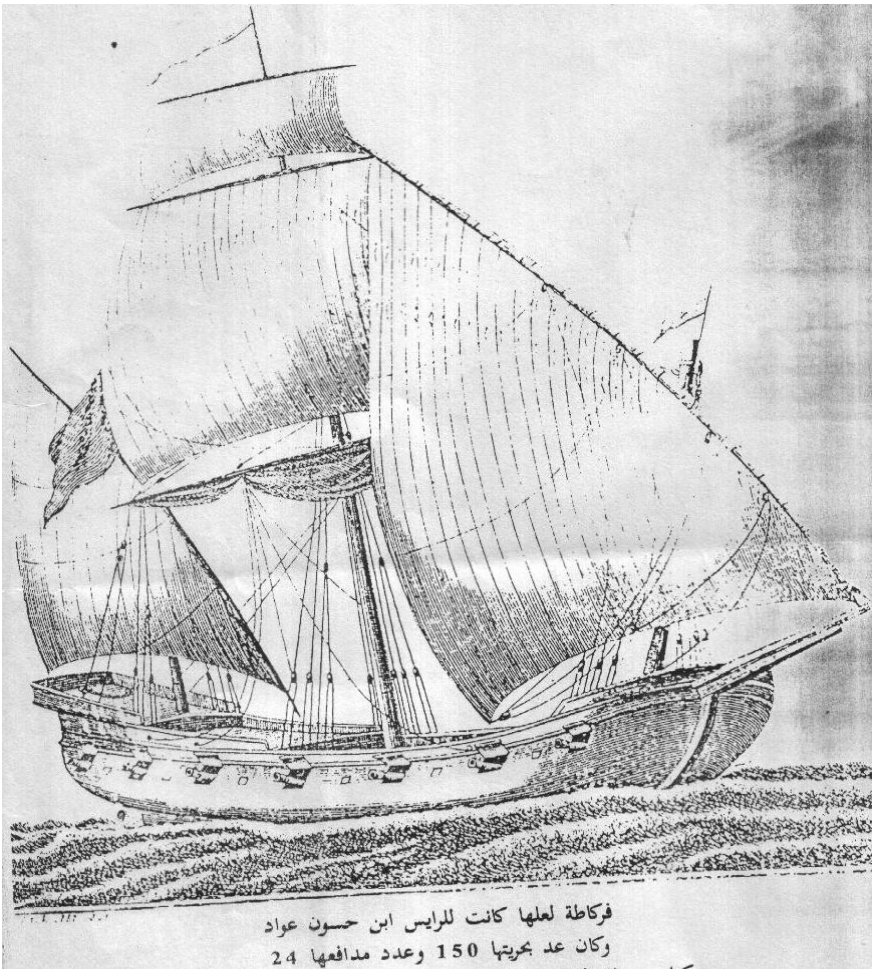

صورة لفرقاطة حربية مغربية سنة 1779م صوّرها القنصل الدانماركي هوست[1]

(1) **الدكالي**، ص: 179.

ج ــ تحصين الموانئ وتحرير الثغور المحتلة:

لم يبق للسلطان محمد بن عبد الله بعد العناية التي أولاها للأسطول المغربي إلا تحصين الثغور المحتلة، التي ظل الاسبان والبرتغاليون يحتفظون بها. فاتخذ لذلك كل ما توفر لديه من وسائل مادية وبشرية.[1] وحاول أن يحتفظ في تحصيناته بضخامة الهيكل ومتانة المادة كما كانت في عهد الموحدين. رغم ما أدخل من التعديلات على بعض الحصون والأبراج الساحلية على يد البرتغاليين، مثل أبراج الجديدة وأزمور[2] وآسفي. وأعاد السلطان تهيئة وترميم بعضها، فعمرها بالجند وشحنها بالمدافع،[3] من ذلك برج الصراط سنة (1169هـ-1755م) وبرج الصقالة المعروف ببرج الخنزيرة، الذي بناه سنة (1190هـ-1776م) بالرباط، ولقد أوكل السلطان مهمة بناء هذه الأبراج لمهندس انجليزي يلقب "بأحمد الانجليزي."[4] أما في الأطلس والواحات فإن القرى والقصور ظلت تحتفظ بأبراجها البدائية في هيكلها وهندستها التي تسودها غالبا لبنة الطوب (الطابية) والآجر، وهي ذات فن تشكيلي خاص بها، فالقصور عبارة عن قرى محصنة في السهول الصحراوية وهي تتسم ببنية منتظمة على نسق واحد تندرج ضمن حصن واحد له أبواب ضخمة واستحكامات ركينة، أي أعمدة قائمة في زوايا القصور، يطغى على هذه القصور الفن المعماري

---

(1) **الفيلالي**، ص: 214.

(2) مدينة صغيرة على ضفة وادي أم الربيع، بين الدار البيضاء وجديدة يرجع تاريخها إلى العهد الفينيقي. أنظر:

- **ابن العربي**، ص: 51.

(3) ابن عبد العزيز، **الجيش المغربي عبر العصور**، ص: 62.

(4) **نفس المرجع**، ص ص: 37، 63.

الأندلسي المغربي والفن الأطلسي الصحراوي المعروف بـــ(التيغرمت) وهو عبارة عن قصر منعزل في شكل قلعة بأربعة أبراج أو برجين.[1]

أما فيما يخص ثغور المغرب المحتلة، فقد كانت هاجس السلطان الكبير والدائم، فقد بذل كل ما لديه من جهد ومال لأجل استرجاعها من الاسبان والبرتغال، ففي قضية الجديدة التي كانت خاضعة لسيطرة البرتغاليين، قام السلطان بحملة عسكرية لاسترجاعها منهم سنة (1182هـــ-1768م)، فجهز لها جيشا كبيرا وحاصرها وطوقها بالمدافع ثم أصلاها بالقنابل أياما، فهدم تحصيناتها وأفنى عددا كبيرا من جند حاميتها وأرغم الباقين منها على الاستسلام، والجلاء عن المغرب.[2]

وبعد أن خلص السلطان محمد بن عبد الله الجديدة من الاحتلال البرتغالي وجه نظره صوب تحرير مدينة سبتة ومليلة اللتين كانتا في يد الاسبان، فبعد أن حاصر المدينتين قرابة المائة يوم، تراجع عن فتحهما، نزولا عند شروط معاهدة خاطئة مع الاسبان، كان كاتبه "أحمد الغزال"[3] قد أبرمها مع الملك كارلوس الثالث[4] عام 1181هـــ الموافق لـــ 26 ماي 1767.[5]

---

(1) **نفس المرجع** ، ص: 62 -63.

(2) **الفيلالي**، ص: 214.

(3) ولد بمكناس وتربى بها، اشتغل كاتبا للوزير أبي القاسم الزياني قبل أن يدخل في خدمة السلطان محمد بن عبد الله، كسفير إلى اسبانيا سنة1181هـــ.أنظر:

- أحمد بن مهدي الغزال، **نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد**، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص: 7-15.

(4) ابن الملك فليب الخامس، تولى حكم الإمبراطورية الإسبانية بعد وفاة أخيه الأكبر فردناند، كان قبل ذلك أميرا على مدينة نابلي، له من الأبناء خمسة هم: كارلوس، فردناند، كابريد، طوني، وماريا طوريس (أي الثالثة). أنظر:- ابن عثمان المكناسي، **الإكسير في فكاك الأسير، سلسلة الرحلات السفرية**، المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب، 1965، ص: 94-95.

(5) **الغزال**، ص: 13.

وكان السلطان يريد حلا سلميا منذ البداية مع الاسبان لاسترجاع المدينتين وقد كلف حاكم تطوان محمد بن عمر الوقاش سنة (1181هـ-1767م) لمباشرة العمل الدبلوماسي مع حاكم سبتة الاسباني. وكمحاولة لاستمالة ملك اسبانيا أطلق السلطان سراح بعض الأسرى الاسبان، مما أدخل السرور على الملك، وفي الوقت نفسه أوفد السلطان كاتبه أحمد الغزال في سفارة إلى اسبانيا كللت بعقد معاهدة مهادنة وصلح بين الجانبين. إلا أن ما وقع من تزوير في بنود المعاهدة من الجانب الاسباني، كان سببا في عزوف السلطان عن استرجاع المدينتين.[1]

ومفاد ذلك أن السلطان محمد بن عبد الله، لما هم باسترجاع المدينتين عسكريا كتب إليه ملك اسبانيا كارلوس الثالث، يذكره بمعاهدة الهدنة والصلح التي أبرمت بينهما، ويقول له:" هذا خط كاتبك الغزال الذي كان واسطة بيني وبينك في عقد الصلح لا يزال تحت يدي. " فأجابه السلطان قائلا:" إنما عقدت معك المهادنة في البحر، أما المدن التي في ايالتنا فلا مهادنة فيها، ولو كانت فيها مهادنة، لخرجتم إلينا ولدخلنا إليكم، فكيف إدعاء المهادنة مع هذه المداهنة ؟ (كذا)."[2]

إثر ذلك بعث ملك اسبانيا إلى السلطان محمد بن عبد الله، بنص المعاهدة، وإذا بالنص يشتمل على كلمتي "البر والبحر".[3]

وإزاء هذا الوضوح لم يسع السلطان محمد بن عبد الله إلى أن يفك الحصار عن المدينتين ويرجع أدراجه، وهذا الفشل العسكري والدبلوماسي آثار

---

(1) محمد ابن تاويت، **تاريخ مدينة سبتة**، ط1، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1982، ص: 199-201.

(2) **الغزال**، ص: 13.

(3) **نفس المصدر**، ص: 13.

سخط السلطان فصب جام غضبه على كاتبه أحمد غزال الذي اتخذ منه كبش أضحية وعزله من منصبه ومن كل وظيفة.

أما سوء التفاهم فمنشؤه أن الغزال كتب في صدر المعاهدة ما نصه: "إن المعاهدة بيننا بحرا لا برا " ولما وقع صك المعاهدة في أيدي الاسبان عمدوا إلى التزييف فمحوا "اللام الألف" وجعلوا مكانها واوا فصار النص" بحرا وبرا."

ولعل المحاولات التي بذلها الغزال لشرح وإثبات التزوير لم تقنع السلطان الذي أنكر عليه اختصار القول، واختزاله بحيث انطوى النص على إمكانية التزوير، الأمر الذي سهل على النصارى مهمتهم في التحريف.[1]

(1) **نفس المصدر**، ص: 14

قائمة المصادر والمراجع

1- الأرقش دلندة، عبد الحميد الأرقش، بن طاهر جمال، **المغرب العربي من خلال المصادر**، المركز الجامعي، د. م. ط ، .2003

2- البوعناني المصطفى، "مشرع الرملة،" **متنوعات محمد حجي**، ط1، دار الغرب الإسلامي، .1998

3- ابن تاويت محمد، **تاريخ مدينة سبتة**، ط1، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الثقافة، الدار البيضاء، .1982

4- الحجوي حسن محمد، **العقل والنقل في الفكر الإصلاحي المغربي (1757ـــ1912)**، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، د. ت. ط.

5- حركات إبراهيم، ***المغرب عبر التاريخ من نشأة الدولة العلوية إلى إقرار الحماية***، *الجزء الثالث، ط1، دار الرشاد* الحديثة، الدار البيضاء، .1985

6- خير فارس محمد، علي عامر محمود، **تاريخ المغرب العربي الحديث" المغرب الأقصىـــ ليبيا"**، منشورات جامعة دمشق، 1999-.2000

7- الدكالي محمد بن علي، **الإتحاف الوجيز بتاريخ العدوتين**، تحقيق محمد بوشعرك، منشورات الخزانة الملكية، الرباط، .1901

8- الزياني أبو القاسم، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا 1147-1249هـــ الموافق لـــ 1734-1904م**، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، د.ت.ط.

9- ابن زيدان عبد الرحمن، **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**، ج3، ط1، المطبعة الوطنية المغربية، 1349هـــ-1931م.

10-ابن زيدان عبد الرحمن، **العز والصولة في معالم نظم الدولة**، وج2، المطبعة الملكية، الرباط، 1381 هـــ-1961م.

11-السبتي عبد الأحد، حليمة فرحات، **المجتمع الحضري والسلطة بالمغرب من القرن 15 إلى القرن 18م**، ط1، دار توبقال، المغرب،.2007

12- الصقلي العربي، **مذكرات التراث المغربي من تثمين الدولة إلى المخاطر**، ج3، منظمة الشمال، د. م. ط، .1985

13-الضعيف محمد بن عبد السلام، **تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة) 1752-1818**، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري، دار المأثورات، المغرب، د.ت.ط.

14- العافية عبد القادر، **الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها خلال القرن 10هـــ-16م**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، .1982

15- بن عبد العزيز عبد الله، **الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة الصحراء**، ج9، مطبعة *فضالة، المغرب، 1976*.

16- بن عبد العزيز عبد الله، **الجيش المغربي عبر العصور**، سلسلة قسم الدراسات الدبلوماسية والقنصلية، وزارة العدل، الرباط، 1986.

17- العربي إسماعيل، **العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة(1776ـــ1816)**، سلسلة الدراسات الكبرى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د. ت. ط.

18- العروي عبد الله، **مجمل تاريخ المغرب**، ط1، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، 2007.

19- ابن العربي الصديق، **كتاب المغرب**، ط3، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، 1984.

20- عسة أحمد، **المعجزة المغربية**، ط1، دار القلم للطباعة، بيروت، 1974-1975.

21- الغزال أحمد بن مهدي، **نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد**، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.

22- الفلالي الهاشمي ، **دروس التاريخ المغربي**، ط3، دار السلمى للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1961.

23- القادري محمد بن الطيب، **التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، 1164/1167هـــ**، تحقيق هاشم العلوي الفاسي، ط1، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983.

24- قدوري عبد المجيد، **المغرب وأوربا بين القرنين 15 و18، مسألة التجاوز**، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000.

25- المريني عبد الحق، **الجيش المغربي عبر التاريخ**، الرباط، 1967.

26- المكاوي أحمد، "الهدية في العلاقات بين المغرب وأوربا"، **المجلة التاريخية المغربية**، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات زعوان، تونس سنة 27، العدد: 99-100، ماي 2000.

27- المكناسي ابن عثمان، **الإكسير في فكاك الأسير، سلسلة الرحلات السفرية**، المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب، 1965.

28- مؤنس حسين، **تاريخ المغرب وحضارته من الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي**، ج3، العصر الحديث للنشر والتوزيع، د.م.ط، 1992.

29- الناصري أبو العباس أحمد، **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق محمد عثمان، ج3، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.

30- الناصري أبو العباس أحمد، **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج4، دار الكتب، الدار البيضاء، د. ت. ط .